الفصل الخامس

حُسْن الجوار

تساقط الثلج بكثافة في الشتاء. جلست ميج بجوار المدفأة لتقرأ كتابًا، أما جو فأمسكت بمكنسة وجاروف وخرجت لإزالة الثلوج من الممرات، فربما تخرج أختها بيث للسير في الهواء الطلق. كانت جو مفعمة بالحيوية لذا لم تهوَ الجلوس بجوار المدفأة، بل أحبت الخروج من البيت وممارسة الرياضة، بقطع النظر عن الأحوال الجوية. في واقع الأمر، قررت جو ذلك اليوم اكتشاف المزيد عن الفتى لورانس المنعزل.

أحبت جو القيام بأشياء جريئة، لذا ألقت بكرة ثلجية على نافذة لوري. ففتح نافذته وابتسم لها، فلوحت بالمقشة وصاحت: «مرحبًا! هل أنت مريض؟»

أجابها لوري بصوت أجش: «أصابني برد شديد، وأمضيت الأسبوع كله داخل المنزل.»

– «ماذا فعلت كي لا تشعر بالملل؟»

– «لم أفعل الكثير.»

لم يكن مسموحًا للوري بالقراءة، وعندما اقترحت عليه جو أن يأتي أصدقاؤه لزيارته، أخبرها أنهم مزعجون للغاية.

– «ما رأيك في فتاة إذن؟ فتاة تلعب دور الممرضة وتقرأ لك؟»

– «لا أعرف فتاة يمكنها فعل ذلك.»

ضحكت جو: «لكنك تعرفني.»

يا لها من فكرة رائعة! عادت جو إلى منزلها لتطلب الإذن من أمها. في غضون ذلك رتب لوري غرفته ومشط شعره. عندما حضرت جو عند باب منزل السيد لورانس، أحضرت معها الكثير من الأشياء الطيبة. صنعت ميج كعكة، أما إيمي فجمعت باقة من الزهور، وأرسلت بيث قططها الثلاثة الصغيرة. كانت هذه الهدايا مثالية في مساعدة

لوري على الاسترخاء. جلست جو فوق كرسي ضخم، وتمدد لوري فوق الأريكة. سألته هل يود أن تقرأ عليه كتابًا، لكن لوري أخبرها أنه يفضل التحدث معها.

تجاذبا أطراف الحديث معًا، فتحدثا عن أسرة جو، واعترف لها لوري أنه استمتع بمراقبة منزلهن من نافذته. تحدث لوري عن معلمه الخاص، السيد بروك، ثم تحدث عن جدِّه، وأخبرته جو أنها لم تذهب إلى المدرسة، وأنها تعمل لدى عمتها مارش. وأفصحت له عن قلقها على أبيها. عندما علم لوري أن جو تحب القراءة مثله، دعاها إلى التجول في المنزل، وبالطبع التوقف أمام المكتبة الرائعة. وفي منتصف جولتهما بالمنزل، رنَّ جرس الباب.

قالت جو: «لا بد أنه جدُّك!»

فقال لوري: «لا تخبريني أنك خائفة منه!»

– «ربما قليلًا، لكنني لا أدري لماذا.»

جاءت الخادمة وأخبرت لوري أن الطبيب قد حضر. أثناء فحص الطبيب للوري في حجرة أخرى، مكثت جو بحجرة المكتبة، ووقفت أمام صورة للجدِّ لورانس.

وظنًّا منها أنها وحدها بالغرفة، قالت بصوت مسموع: «لا ينبغي أن أخشاه، فعيناه حنونتان، مع أن فمه مروع ويبدو عليه أنه قوي العزيمة. ليس وسيمًا كجدِّي، لكنني مع هذا أحبه.»

جاء صوت من خلفها: «شكرًا جزيلًا يا سيدتي.» فالتفتت لتجد السيد لورانس العجوز! يا له من موقف محرج لجو المسكينة التي احمرت وجنتاها خجلًا، فكرت لحظة أن تركض بعيدًا، لكنها ظلت واقفة. عندما نظرت إلى الجدِّ العجوز مرة أخرى تبينت أن عينيه تنمان عن طيبة أكثر مما هو واضح في الصورة.

وبعد فترة من الصمت الطويل، سألها العجوز بصوت أجش: «إذن لست خائفة مني؟»

قالت جو بصوت خافت: «ليس كثيرًا يا سيدي.»

– «لكنك تحبينني رغم ملامح وجهي القبيحة؟»

أجابته جو: «أجل يا سيدي!»

حازت إجابتها رضا السيد لورانس، وفرحت جو حين قال لها إنها تملك روح جدها لأبيها. شرحت له أن سبب مجيئها أنها أرادت أن تكون ودودة مع جيرانها، واتفقا على أن لوري بحاجة إلى بعض المرح. تأبطت جو ذراع السيد لورانس واتجها معًا إلى

حجرة المعيشة لاحتساء الشاي مع لوري. سرعان ما تجاذبت جو ولوري أطراف الحديث كالأصدقاء القدامى، ورأى السيد لورانس أن جو لها تأثير إيجابي للغاية على لوري.

أُعجبت جو بالبيانو الكبير، وبعد احتساء الشاي، أقنعت لوري بالعزف عليه، وتمنت لو أن بيث تستطيع سماع عزفه. أخذت جو تتحدث بحماسة عن مهارة لوري في العزف حتى أوقفها الجد عن المديح وودَّعها في عجالة.

عندما خرج لوري وجو إلى الردهة الأمامية، سألته هل فعلت شيئًا أغضب السيد لورانس، فقال لها إن جده لا يحب أن يعزف لوري على البيانو، وأنه سيخبرها بالسبب في وقت لاحق. ثم تعهَّدا بزيارة أحدهما الآخر مرة أخرى.

اندفعت جو نحو منزلها لتخبر عائلتها باليوم الرائع الذي أمضته وهي تحسن إلى جارها. وأصبح لدى كل واحدة من شقيقاتها سبب مختلف لاستكشاف المنزل الموجود بالجوار، فأرادت ميج أن ترى الصوبة الزجاجية، وتمنَّت إيمي رؤية اللوحات والتماثيل الجميلة، واشتاقت بيث إلى العزف على البيانو الكبير. اكتسبت جو لوري صديقًا لها، وفرحت كثيرًا لأنها نجحت في التخفيف من آلامه.

أطلقت بيث على منزل السيد لورانس الكبير اسم «قصر الجمال»، على الرغم من أنها احتاجت إلى بعض الوقت لتستجمع شجاعتها لزيارة المنزل. كانت بيث لا تزال تخاف من السيد لورانس، على الرغم من أنه حاول بث شعور الطمأنينة داخل الفتيات الأخريات. في البداية شعرت الفتيات بالخجل لأنهن لم يستطعن رد الهدايا له. لكن في غضون أسابيع، تناست الفتيات كبرياءهن، وتوطَّدت الصداقة التي جمعت بين لوري وعائلة مارش.

أخبر لوري معلمه الخاص، السيد بروك، كم أن الفتيات رائعات. وكثيرًا ما كانت تفوته الدروس لأنه كان يخرج برفقتهن. لم يكن للوري أم أو شقيقات، وكان يبتهج ويحظى بالمتعة والراحة برفقة الفتيات. لحسن الحظ، رأى جدُّه أن هذا الأمر في صالحه وأخبر السيد بروك ألا يقلق إذا فات لوري درس أو اثنان. قال له: «لنتركه يحظى بإجازة! فهو بحاجة إلى أصدقاء صالحين والتنزه برفقتهم. وعلى أي حال، أعتقد أنني بالغت في الخوف عليه في الآونة الأخيرة.»

حظي لوري بمتعة بالغة مع الفتيات! فقد تزلجوا وركبوا عربات الجليد وعزفوا وأدوا المسرحيات معًا. سرعان ما بدأت جميع الفتيات — ما عدا بيث الخجولة — يتعاملن مع قصر السيد لورانس على أنه بيتهن الثاني. وكما توقعن، أحيانًا كثيرة تذهب ميج إلى

الصوبة الزجاجية، أما جو فكانت تتصفح الكتب بالمكتبة، وإيمي كانت تنسخ اللوحات. لكن بيث لم تتجرأ على دخول المنزل المجاور والعزف على البيانو الكبير، على الرغم من اشتياقها إلى ذلك كثيرًا.

لكن عصفورة صغيرة تدعى جو أخبرت السيد لورانس عن حب بيث للعزف. فشرع في مساعدتها على التغلب على خجلها. أثناء زيارة مارمي إحدى الأيام، تحدث السيد لورانس طويلًا عن كبار العازفين والمطربين العظماء الذين شاهدهم. أثار هذا الكلام انتباه بيث فنهضت من الزاوية التي كانت تجلس بها ووقفت تستمع إليه. لكن السيد لورانس تظاهر أنه لم يلحظ الفتاة الصغيرة الخجولة، وأردف: «إن لوري يهمل العزف هذه الأيام، وذلك البيانو الكبير لا يجد من يعزف عليه، إذا أرادت الفتيات التمرن عليه، حتى تظل أوتاره مشدودة فحسب، فسأكون ممتنًا لهن.»

خطت بيث خطوة إلى الأمام ويداها متشابكتان في حماسة وانفعال.

ابتسم السيد لورانس، واستطرد: «ليسوا بحاجة إلى الاستئذان ولن يزعجهن أحد. لذا رجاءً أخبري الفتيات بما قلته، في حالة أن اهتمت أي منهن بالأمر.»

مدَّت بيث يدها الصغيرة، وسلمت على السيد لورانس، وصاحت: «يا إلهي! إنهن يهتممن بالأمر كثيرًا يا سيدي!»

سألها: «هل أنت الفتاة التي تهوى الموسيقى؟»

– «أنا بيث، أحب الموسيقى كثيرًا، وسأحضر للعزف على البيانو إذا كان هذا الأمر لن يسبب لك أي إزعاج.»

أجابها السيد لورانس: «المنزل يكون خاليًا في أغلب أوقات الظهيرة، وبهذا لن تتسببين في إزعاج أحد، لذا عليك أن تأتي وتعزفي كما تحبين. هذا الأمر سيسعدني كثيرًا.»

احمرت وجنتا بيث، كانت لا تزال تخاف منه، لكنها شعرت بارتياح أكثر. عبرت عن امتنانها لهديته الغالية بالضغط على يده بعد أن ضاعت كلمات الشكر منها.

مرر العجوز يده فوق شعرها، وقبَّل جبينها. وقال بصوت خفيض: «كان لديّ فتاة صغيرة عيناها مثل عيناك، فليباركك الله.»

غادر السيد لورانس بعد أن ودَّع السيدة مارمي سريعًا. كانت بيث في حالة من النشوى، ركضت مباشرة نحو دمياتها لتخبرها بما حدث، إذ لم تكن شقيقاتها بالمنزل.

في اليوم التالي راقبت بيث منزل السيد لورانس، وانتظرت حتى خرج لوري وجدُّه من المنزل. وبعد محاولتين أو ثلاث، استطاعت في النهاية الدخول إلى المنزل. وتسللت

في هدوء إلى حجرة المعيشة، ووقفت في رهبة تحملق في البيانو الجميل. لقد ترك أحد الأشخاص نوتة موسيقية فوق البيانو. بأصابع مرتجفة، لمست بيث أخيرًا الآلة الموسيقية الضخمة، وتبدَّد خوفها. جلست وعزفت كيفما شاءت حتى جاءت هانا لاصطحابها إلى المنزل لتناول العشاء. بعد تلك التجربة، ذهبت بيث للعزف على البيانو كل يوم تقريبًا. ولم تشك أبدًا أن السيد لورانس هو من يترك لها الأغاني الجديدة وكتب التدريبات، أو أنه يفتح باب مكتبه ليستمع إلى عزفها، أو أن لوري كان يحرص على عدم مقاطعة أي شخص لها. شعرت بيث بامتنان كبير لتلك النعمة حتى إنها سألت أمها هل لها أن تصنع خفًّا جديدًا للسيد لورانس للتعبير عن شكرها له.

وافقت السيدة مارمي بالطبع، وساعدتها ميج وجو على اختيار التصميم والخامات، وشرعت بيث في صنع الخُف. كانت بيث خياطة بارعة، ولم يستغرق صنع الخُف منها وقتًا طويلًا. كتبت رسالة قصيرة، وطلبت من لوري أن يأخذ الخف خلسة إلى حجرة المكتب الخاصة بجده ويضعه فوق المنضدة في الصباح حتى يراه عندما يستيقظ.

انتظرت بيث لتعرف وقع الهدية على السيد لورانس. مرَّ يومان دون أن تسمع شيئًا، فساورها القلق أن تكون قد أغضبت صديقها العجوز. في ظهيرة اليوم الثاني، خرجت بيث للقيام بأمر ما، وعندما عادت وجدت شقيقاتها وهانا في انتظارها عند الباب الأمامي والحماسة تملؤهن.

قالت جو: «تعالي بسرعة، هناك خطاب لك!»

قالت إيمي: «أوه بيث! لقد أرسل لك ...»

فوضعت جو يدها فوق فم إيمي، كي لا تفسد المفاجأة الرائعة.

عندما دخلت بيث إلى حجرة الجلوس، شحب وجهها من البهجة والمفاجأة معًا. إذ وجدت أمامها بيانو صغيرًا وفوقه خطاب مكتوب عليه: «الآنسة إليزابيث مارش.»

قالت بيث وهي تلهث: «أهذا لي؟» أمسكت بجو بإحكام خوفًا من أن تصاب بالإغماء في الحال.

أطلقت جو صرخة، وقالت: «أجل! إنه لك، أليس هذا بادرة طيبة منه؟ إنه أروع جدٍّ عجوز في العالم.»

حاولَت إعطاء الخطاب لبيث ومعه مفتاح البيانو، لكن بيث هزت رأسها بالرفض؛ إذ كانت في حالة من الانفعال الشديد، ففتحته جو، وقرأت: «الآنسة مارش، لقد امتلكت الكثير من الأخفاف في حياتي، لكن لم يناسبني أي منها كذلك الخف الذي صنعتِهِ لي.

أود تقديم شيء لك في المقابل؛ هذا البيانو يخص حفيدتي التي فقدُتها، لك جزيل الشكر وخالص التمنيات. صديقك، جايمس لورانس.»

قالت جو: «يا له من شرف عظيم! أخبرني لوري كم كان السيد لورانس يحب حفيدته التي ماتت، وأنه يعتني بأغراضها بشدة، والآن يقدم لك البيانو الخاص بها!»

لم تفق بيث من صدمتها إلا بعد أن جلست وعزفت على البيانو. صاح الجميع في دهشة إنه أروع بيانو سمعوا صوته مطلقًا. نظرت الفتيات في فرحة كبيرة إلى شقيقتهن الغالية وهي تعزف بأصابعها على مفاتيح البيانو الجميل وتضغط على بدَّالاته اللامعة!

قالت جو: «عليك أن تشكريه.» وقد غاب عن بالها أن بيث الخجولة لا يمكن أن تفعل شيئًا كهذا أبدًا.

– «أجل، أعتقد أنني سأذهب إليه الآن قبل أن يزداد ذعري.»

حدثت المعجزة التي أثارت دهشة العائلة، وخرجت بيث من منزلها، ومرَّت بالحديقة، واتجهت نحو منزل السيد لورانس، ودخلت المنزل، وطرقت باب حجرة المكتب.

صاح صوت أجش: «تفضَّل!»

توجهت بيث نحو السيد لورانس، ومدَّت يدها، وقالت بصوت يرتعش: «جئت لأشكرك على ...» لكنها لم تستطع إنهاء الجملة. بدا حنونًا وودودًا للغاية حتى إنها عانقته. فكرت بيث في الفتاة الصغيرة التي فقدها، فطبعت قُبلة على وجنته.

تأثر السيد لورانس كثيرًا بدفء مشاعر بيث التي أذابت معها قساوته الظاهرة. أجلسها على ساقيه وكأنه استعاد حفيدته مرة أخرى. زالت مشاعر الخوف عن بيث، وتحدَّثت معه وكأنها تعرفه من قديم الأزل. عندما عادت إلى المنزل، سار معها حتى الباب، ثم صافحها، وابتسم لها وهو يرفع قبعته ليودعها على نحو راق.

لم تصدق شقيقاتها ما حدث؛ فرقصت جو، وكادت إيمي أن تسقط من النافذة وهي تشاهد ما يحدث، أما ميج فصاحت: «لا بد أن نهاية العالم قد اقتربت!»

الفصل السادس

إيمي في بحر من المهانة

كثيرًا ما كانت تنطق إيمي بكلمات خاطئة، كانت تلك إحدى صفاتها المميزة والمحببة. ذات يوم، مر لوري أمام منزل عائلة مارش وهو يمتطي حصانًا. راقبته إيمي، ثم قالت: «إنه يشبه العملاق سايكلوب.»

سألتها جو: «ماذا تقصدين؟ إن عينيه جميلتان!» كانت جو تمقت أن يذكر أحد صديقها العزيز بسوء.

ردت إيمي سريعًا: «لم أقل شيئًا عن عينيه، أنا أبدي إعجابي بمهاراته في ركوب الخيل.»

ضحكت جو بصوت عال، وقالت: «إذن تقصدين المخلوق الأسطوري سِنتور.»

لم تحب إيمي استهزاء جو بها، فقطَّبت جبينها دقيقة للكلمة الخاطئة التي تفوهت بها، ثم قالت بصوت خافت: «ليتني أملك قليلًا من المال الذي ينفقه لوري على ذلك الحصان.»

سألتها ميج: «لماذا؟»

اعترفت لها إيمي أنها غارقة في الديون. وأنها مدينة باثنتي عشرة ليمونة مخللة على الأقل لزميلاتها بالمدرسة. حاولت ميج أن تتعاطف معها، وسألتها هل أصبح الليمون عملة شائعة بالمدارس هذه الأيام.

شرحت لها إيمي أن الليمون يُتداوَل بين الأصدقاء مقابل الأقلام الرصاصية والحِليّ والدُمى الورقية. إذا أحبتك فتاة، فشرف كبير أن تعطيك ليمونة، وإذا لم تكن تحبك، فستأكلها أمامك فحسب. «والآن أنا مدينة بالكثير من الليمون، ولم أوفِ ولو بواحدة على الرغم من أنه ينبغي علي ذلك حقًّا.»

أخرجت ميج حقيبة النقود، وأعطت إيمي المال لشراء الليمون. شكرتها إيمي بحرارة. والآن أصبح بمقدورها إثبات أنها ليست أقل من صديقاتها.

تأخرت إيمي في الوصول إلى المدرسة في اليوم التالي، إذ توقفت لشراء خمسة وعشرين ليمونة لذيذة. وفي المدرسة انتشر خبر الليمون الذي أحضرته إيمي، فأغدقتها زميلاتها بالاهتمام، حتى إن جيني سنو — التي كانت تسخر من إيمي لعدم امتلاكها لليمون — عاملتها بلطف. هذا لا يعني أن إيمي سامحتها على ما فعلت، فإيمي لا تنسى أبدًا أي إساءة. وعلى الفور أخبرت جيني أنها لن تعطيها أي ليمون.

في ذلك اليوم، حضر زائر مهم إلى المدرسة، وامتدح الخرائط التي رسمتها إيمي. عندما ملأ إيمي الغرور والكبرياء، ملأت الغيرة قلب جيني. وما إن غادر الزائر حتى أخبرت جيني المعلم، السيد دافيس، أن إيمي لديها ليمون مخلل تحت مقعدها.

كان السيد دافيس قد حظر إحضار الليمون إلى الفصل، وهدَّد بعقاب فوري لأي طالب يخالف أوامره. كان السيد دافيس معلمًا طيبًا، لكنه لا يفهم الفتيات الصغيرات. لم يكن السيد دافيس يحتمل إساءة السلوك، وفوق هذا وذاك كان قد استيقظ عكر المزاج ذلك الصباح. لذا عندما سمع كلمة «ليمون» من شفتي جيني، استشاط وجهه العابس غضبًا.

– «آنساتي، أعيروني انتباهكن!»

عم الصمت أرجاء الفصل، وأخذت الفتيات الخمسون يحملقن في المعلم.

– «آنسة مارش، تعالي هنا من فضلك.»

نهضت إيمي، لكنها شعرت بالخوف لأنها خالفت القواعد.

– «أحضري الليمون من أسفل مقعدك.»

شعرت إيمي بذعر أكبر، فذهبت وأخرجت من الكيس ست ليمونات، ووضعتها أسفل مقعدها، وأخذت الباقي إلى السيد دافيس. تمنَّت أن يلين قلبه عندما يشتم رائحة الليمون الطيبة، لكن السيد دافيس لم يكن يحب رائحة الليمون المخلل، بل كانت تزيد غضبه.

– «هل هذا كل ما لديك؟»

تلعثمت إيمي، وقالت: «ليس بالضبط.»

– «أحضري الباقي على الفور.»

امتثلت إيمي لأوامره.

سألها السيد دافيس: «هل أنت واثقة أنه ليس لديك المزيد؟»

– «أنا لا أكذب يا سيدي.»

– «حسنًا، خذي الآن هذه الأشياء الكريهة وألقي بها من النافذة.»

شهق التلاميذ بالفصل كله، فقد ضاع أمل وليمة الليمون إلى الأبد. ذرعت إيمي الفصل جيئة وذهابًا اثنتي عشرة مرة من النافذة وإليها، وشعور الخزي يعتصرها في كل مرة تلقي بليمونها المنتفخ المليء بالعصارة في الشارع.

عندما انتهت، قال لها المعلم: «مدِّي يدك يا آنسة مارش.»

انتفضت إيمي، فقد كانت إحدى الطالبات المفضلات لدى السيد دافيس، وتمنَّت ألا يتمادى أكثر في عقابها. وضعت يدها خلف ظهرها، وخرج صوت هسيس من بين شفتيها دون وعي، فزاد غضب السيد دافيس الذي كرر: «مدِّي يدك يا آنسة مارش!»

رفعت إيمي الأبِيَّة رأسها، ومدَّت راحت يدها، وتلَّقت الضربات دون أن تظهر تألمًا أو خوفًا. كانت هذه هي المرة الأولى التي تُضرب فيها إيمي، وشعرت بخزي شديد داخل نفسها الأبِيَّة.

– «الآن قفي على المنصة حتى يحين وقت الراحة.»

يا له من موقف مهين أن تقف أمام الفصل كله ويشاهدها أصدقاؤها وأعداؤها على حد سواء! ولأنها تمر بهذا الوضع المخزي للمرة الأولى فقد بدا أنه يفوق قدرتها على الاحتمال. وقفت إيمي وعيناها مرتكزتان على الموقد الموجود في آخر الفصل. ظلت صامتة ونالت عقابها. كان قلبها ينزف دمًا ويدها تؤلمها، لكن لم يكن ألَمُهما يضاهي ألَمَ تفكيرها في العودة إلى المنزل وإخبار أسرتها بما حدث ومواجهة شعورهن بالإحباط.

مرت الدقائق الخمس عشرة التي وقفتها إيمي كالدهر. وعندما حان وقت الراحة، رمقت إيمي السيد دافيس بنظرة لن ينساها أبدًا. ثم اتجهت إلى مقعدها، وجمعت أغراضها، وغادرت إلى المنزل وهي عازمة على ألا تعود إلى المدرسة مرة أخرى.

وطوال ما تبقى من الصباح، لم تجد إيمي من يخفف عنها آلامها، وكانت لا تزال غاضبة في الظهيرة عندما عادت أمها وشقيقاتها اللائي داوَيْن يدها المتقرحة وروحها المجروحة حتى إن هانا العجوز نعتت السيد دافيس بأنه «وغد».

بالمدرسة لم يلحظ أحد أن إيمي غادرت منذ ساعات حتى حضرت جو ومعها رسالة من السيدة مارمي، ثم جمعت بقية أغراض شقيقتها وغادرت.

منذ ذلك الحين، أخبرت السيدة مارمي ابنتها إيمي أن بإمكانها الدراسة بالمنزل مع بيث.

– «هذا رائع! ليت كل من بالمدرسة يتركونها وتصبح خاوية على عروشها. ربَّاه! كم أشعر بالحزن عندما أتذكر ذلك الليمون الجميل.»

أجابتها مارمي: «لقد خالفت القواعد، واستحققت العقاب.»

صاحت إيمي: «هل تقصدين أنك سعيدة بالمهانة التي تعرضت لها.»

– «لا بالطبع، فأنا أعارض ضرب المعلمين للتلاميذ، لكن غرورك يزداد، وعليك أن تتعلمي كيف تكونين متواضعة.»

صاح لوري الذي كان يلعب الشطرنج مع جو في زاوية المنزل: «بالضبط! أعرف فتاة تتمتع بموهبة كبيرة في العزف وتؤلف أغاني جميلة، وعلى الرغم من ذلك لا تعرف قدر نفسها.»

فكرت بيث لحظة: «ليتني أتعرف على تلك الفتاة، لعلَّ بإمكانها مساعدتي!»

قال لوري: «أنت تعرفينها بالفعل، وهي تساعدك أكثر من أي شخص آخر.» لمعت عيناه السوداوان بالمكر، واحمرت وجنتا بيث عندما أدركت أنه يتحدث عنها. سمحت له جو بالتغلب عليها في اللعب مقابل مدحه لشقيقتها الخجولة. بعد ذلك لم ينجح أي منهم في إقناع بيث بالعزف على البيانو، وغنى لوري وعزف بدلًا منها.

بعد أن غادر لوري، سألت إيمي عن السبب وراء تواضعه على الرغم مما حققه من إنجازات طيبة. أجابتها السيدة مارمي أنه على الرغم من أن لوري إنسان ناجح للغاية، فقد استغل مواهبه بصورة متواضعة. أنعمت إيمي التفكير طويلًا في ملاحظة أمها هذه، وأثرت فيها كثيرًا.

الفصل السابع

شجار عنيف

كانت ميج وجو تستعدان للخروج من المنزل لقضاء أمسيتهما بالخارج، فكانت القفازات والأوشحة ودبابيس الشعر مبعثرة في أرجاء حجرة نومهما.

دخلت إيمي عليهما وسألتهما: «أين ستذهبان؟»

أجابتها جو في حدة: «ما شأنك؟ يجب ألا تطرح الفتيات الصغيرات الأسئلة.»

مع ذلك كانت إيمي تشعر بالفضول، لذا توجهت بالسؤال إلى ميج الأكثر مرونة: «رجاءً أخبريني يا ميج، فبيث تلعب مع دمياتها، وليس هناك ما أفعله، اسمحا لي بالذهاب معكما!»

أجابتها ميج: «لا أستطيع اصطحابك معنا لأنك لست مدعوة.»

أضافت جو: «كفاك إلحاحًا! ببساطة لا يمكنك المجيء معنا.»

– «ستخرجان مع لوري، أليس كذلك؟»

أومأت ميج: «أجل، والآن توقفي عن إزعاجنا.»

جلست إيمي في هدوء دقيقة، ثم رأت ميج تضع مروحة يدوية في جيبها، فشهقت وقالت: «أعلم إلى أين ستذهبان! ستذهبان إلى المسرح!»

استشاطت جو غضبًا وانزعجت كثيرًا.

لم تعبأ إيمي واستطردت: «سأذهب معكما، فمعي مصروفي، وأخبرتني أمي أنني أستطيع مشاهدة المسرحية بالبلدة.» ثم أخذت نفسًا عميقًا: «كم أنتما خبيثتان لأنكما لم تخبراني!»

شرحت لها ميج برفق، إذ كانت تجمعها علاقة من نوع خاص مع إيمي، «إن أمي لا تريدك أن تذهبي اليوم معنا، لأنك لست بخير. ستشاهدين المسرحية الأسبوع المقبل مع هانا وبيث.»

صاحت إيمي: «لكن لن يكون الأمر ممتعًا مثلما سيكون معك أنت وجو ولوري. أنا مريضة بالبرد منذ فترة طويلة، وأتوق لأن أحظى ببعض المتعة.»

استدارت ميج إلى جو، وقالت: «ما رأيك أن نصطحبها معنا؟ سنجعلها ترتدي الكثير من الملابس التي تبعث على الدفء.»

قالت جو في حزم: «لن أذهب إذا ذهبت! وإذا لم أذهب، فسينزعج لوري. لقد دعانا نحن الاثنتين، ولم يدع إيمي. ليتها تفكر جيدًا قبل أن تتطفل علينا وتأتي معنا دون دعوة.»

زاد غضب جو من إصرار إيمي على الذهاب، وشرعت في ارتداء حذاءها وقالت: «سأذهب معكما، لقد قالت ميج توًّا إنه يمكنني ذلك!»

قالت جو بسرعة: «وأين ستجلسين، هناك كرسيان محجوزان لنا!»

بدأت إيمي تبكي وحاولت ميج تهدئتها. صاح لوري من الخارج وقال إنه حان وقت الذهاب. لم تكف إيمي عن العويل، فقد نسيت تظاهرها بأنها فتاة ناضجة وتصرفت كطفل مدلل. وعندما خرجت ميج وجو من الباب الأمامي، صاحت إيمي من عند درابزين السلم: «ستندمين على هذا يا جو مارش!»

صاحت جو: «هراء!» وصفعت الباب. وللمرة الثانية، اصطدمت طبيعة جو سريعة الغضب مع إرادة إيمي الحديدية.

عندما عادت الفتاتان إلى المنزل بعد انتهاء المسرحية، كانت إيمي تقرأ في حجرة المعيشة ورفضت التحدث معهما. تحققت جو من حجرتها لتطمئن أن كل شيء على ما يرام، ففي آخر مرة تشاجرت فيها مع إيمي، أخرجت إيمي فساتين جو من الأدراج وألقتها على الأرض. لكن هذه المرة بدا كل شيء طبيعيًّا بغرفة جو، فظنت أن إيمي سامحتها ونسيت الأمر.

لكنها كانت مخطئة، ففي اليوم التالي، اقتحمت الكاتبة الصغيرة غرفة المعيشة وهي تصيح: «هل أخذت إحداكن كتابي القصصي؟»

أجابتها ميج وبيث على الفور: «كلا.»

استدارت جو إلى أختها الصغرى التي كانت تذكي نيران المدفأة: «إيمي، إنه معك! من المؤكد أنه معك.»

– «كلا، ليس معي.»

– «إذن تعرفين أين هو.»

– «كلا.»

صاحت جو: «أيتها الكاذبة!» وأمسكت أختها من كتفها.

– «كلا، لست كذلك، لا أدري أين هو ولا أهتم بذلك.»

هزت جو أختها قليلًا: «من الأفضل لك أن تخبريني بالحقيقة!»

– «اغضبي كما شئت، لن تري قصصك القديمة مرة أخرى.»

استشاطت جو غضبًا: «لماذا؟»

– «لقد أحرقتها في نيران المدفأة.»

«ماذا فعلتِ؟» شحب وجه جو وأحكمت قبضتها حول كتف إيمي. «كتابي الذي استغرق مني أعوامًا؟ كتابي الذي أردت الانتهاء منه قبل عودة أبي إلى المنزل؟ هل أحرقته بالفعل؟»

– «أجل، أحرقته! لقد أخبرتك أنك ستدفعين ثمن ...»

انفجرت جو، وأخذت تهز شقيقتها هزًّا عنيفًا حتى بدأت أسنان إيمي تصطك. «أيتها الشريرة، أيتها الشريرة! لن أستطيع كتابته مرة أخرى. لقد ضاع إلى الأبد. لن أسامحك ما حييت، لن أسامحك أبدًا!»

هرعت ميج لإنقاذ إيمي من قبضة جو، وحاولت بيث تهدئة جو، لكن كان أمرًا مستحيلًا. وفي النهاية سددت جو لكمة لإيمي عند أذنها، وركضت إلى علية المنزل لتمكث وحدها وسط أحزانها.

كان كتاب جو الذي يضم قصصًا خيالية مصدر فخرها وفرحتها. وفي صميم قلبها كان حزنها أكبر من أي عزاء.

كان الاجتماع على العشاء لا يحتمل، إذ كانت جو متجهمة. أوضحت السيدة مارمي لإيمي مدى شناعة فعلتها، وصدقت بيث وميج على كلام أمِّهما. شعرت الفتاة الصغيرة بالاستياء من نفسها، وتمنَّت كثيرًا أن تسامحها جو في تلك اللحظة. توسلت إلى جو من كل قلبها: «أرجوك يا جو، سامحيني، أنا في غاية الأسف.»

نظرت جو إلى إيمي والشرر يتطاير من عينيها: «لن أسامحك أبدًا!» وتوقفت عن الحديث مع إيمي.

عمَّ التوتر أرجاء المنزل؛ عزفت بيث على البيانو لكن جو ظلت صامتة وأخذت إيمي تبكي. ذهبت مارمي إلى جو لتقبيلها قبل أن تخلد إلى النوم وهمست في أذنيها: «لا تخلدي إلى النوم وأنت غاضبة يا عزيزتي، حاولي أن تسامحيها رجاءً.» أرادت جو أن

تبكي لكنها حبست دموعها، وقالت بصوت عال بما يكفي كي تسمع إيمي: «لقد ارتكبت فعلة شنيعة ولا تستحق السماح.»

استيقظت جو وهي تشعر بأنها على شفا الانفجار، وكانت إيمي مثقلة بالهموم، وأخذت تبدي ملاحظات ساخرة حول الأشخاص غير المتسامحين. مر ذلك اليوم المرير من فصل الشتاء على نحو سيئ على عائلة مارش.

بعد أن عادت جو من عملها، لم ترد المكوث في المنزل، فقررت أن تذهب إلى لوري وتدعوه إلى التزلج على الجليد معًا. سمعت إيمي جو وهي تحضر حذاء التزلج من خزانتها فقالت لميج في تذمر: «لقد وعدتني بأنها ستأخذني معها! أعتقد أنه لا فائدة من طلب ذلك منها الآن.»

أجابتها ميج: «لقد أسأت التصرف للغاية، لقد عملت جو بكل كد في ذلك الكتاب. لها كل الحق في أن تغضب منك.» ثم توقفت ميج عن الخياطة، وقالت: «لكن من الممكن أن تسامحك بعد أن يعمل لوري على تهدئتها. يمكنك اللحاق بهما، وقبّلي جو في اللحظة المناسبة، وسيكون كل شيء على ما يرام.»

تعاملت إيمي مع نصيحة ميج بجدية، وركضت خلف جو ولوري. استعدت جو ولوري للتزلج قبل أن تصل إيمي بفترة. رأت جو أختها وهي في طريقها إليها فأدارت لها ظهرها، لم يلحظ لوري إيمي لأنه كان يختبر الجليد. صاح: «تزلجي عند الأطراف، أعتقد أن منطقة المنتصف غير آمنة.»

سمعت جو إيمي وهي تواجه صعوبة مع حذاء التزلج الخاص بها، لكنها لم تلتفت إليها. تزلجت جو بجانب النهر وهي تشعر برضا ممزوج بالمرارة لأن أختها تواجه صعوبات. سمعت جو تحذيرًا آخر من لوري، لكن إيمي لم تسمعه، فالجزء الغاضب داخل جو جعلها لا تعبأ بالخطر الذي قد تواجهه إيمي. تزلجت إيمي نحو منتصف النهر. استدارت جو في اللحظة المناسبة، فرأت أختها تسقط وسط النهر. وقفت جو لحظة واحدة في ذهول، رأى لوري ما حدث، وصاح: «أسرعي! أحضري حبلًا معدنيًّا!» فعلت جو ما أمرها به لوري. حاول الاثنان جاهدين إخراج إيمي التي كانت تشعر بالذعر أكثر من الألم الذي تسببه المياه.

قال لوري: «لا بد أن نعود بها إلى المنزل في أقصى سرعة، لندثرها بمعاطفنا لتدفئتها.»

وصلت إيمي إلى المنزل بمساعدة جو ولوري وهي تبكي وترتجف ويتقطر منها الماء. سرعان ما غُطيت إيمي بالبطاطين وجلست أمام المدفأة. أخذت جو تركض هنا

وهناك في محاولاتها لإراحة إيمي حتى إنها لم تلحظ أن فستانها تمزق كثيرًا أو أن يديها مجروحتان أو بهما رضوض.

في وقت لاحق، ضمدت مارمي يدي جو المتقرحتين. بكت جو لأنها كانت تشعر بالاستياء من نفسها عندما تفكر أنها السبب في وقوع حادثة مروعة لأختها إيمي. قالت جو لأمها: «كيف أتعامل مع انفعالاتي الشديدة؟ إنها تهزمني.»

طبعت مارمي قبلة على وجنة جو المبتلة بالدموع، وقالت لها: «اعتدت أن أكون حادة الطباع مثلك تمامًا، وطالما حاولت أن أتخلص من ذلك الأمر على مدى أربعين عامًا، ولم أنجح إلا في التحكم في انفعالاتي فحسب.»

شعرت جو بتحسن عندما عرفت أن أمها كانت تعاني العبء نفسه. أخبرت مارمي جو أن الأمر يكون أفضل كثيرًا عندما تتحكمين في غضبك بحكمة، وأن تكوني صبورة وطيبة القلب. عانقت مارمي جو عناقًا حارًّا، وشعرت جو على الفور بأن حالها أفضل.

تحركت إيمي من شرنقتها.

قالت جو: «سمحت لنفسي أن أظل غاضبة، ولولا لوري، لكان من الممكن أن تموت إيمي. كيف أصبحت شريرة هكذا؟»

فتحت إيمي عينيها، ومدت يدها إلى جو بابتسامة اخترقت قلب جو على الفور. لم تنطقا بكلمة واحدة، بل تعانقتا وسامحت كل منهما الأخرى، ونسيتا كل شيء بقبلة من القلب.

الفصل الثامن

ميج وحياة الترف

حلَّ شهر أبريل/نيسان على البلدة الخاملة، وتحسنت الأحوال الجوية أخيرًا. كانت ميج تستعد لقضاء أسبوعين بمنزل آني موفا. فقد أصيب أطفال أسرة كينج التي تعمل لديهم بالحصبة، لذا ستقضي ميج إجازة لم تكن في الحسبان. في البداية ترددت السيدة مارمي في السماح لميج بالمكوث عند عائلة موفا، لكن صديقتها سالي جاردينر وعدتها بأن تعتني بميج. ساعدت الشقيقات الثلاث ميج في الاستعداد للرحيل.

صاحت جو وهي تطوي تَنُّورات ميج: «أسبوعان كاملان من الاستمتاع، يا له من شيء رائع!»

أضافت بيث التي كانت ترتب لها الشرائط التي تُلَف حول الشعر والعنق: «أنت محظوظة لأن الجو أصبح رائعًا.»

تنهدت إيمي، وقالت: «ليتني أستطيع قضاء وقت طيب وارتداء ملابس جميلة.»

قالت ميج: «ليتكن تستطعن المجيء معي، سأتذكر كل مغامراتي لأحكيها لكُنّ عندما أعود. هذا أقل شيء يمكنني تقديمه لكُنّ مقابل مساعدتكن.»

سألتها جو: «ماذا أعطتك أمُّنا من صندوق الكنوز؟»

– «الجورب الحريري الطويل، وتلك المروحة اليدوية وذاك الوشاح الأزرق المزخرف. أردت الفستان الحريري بنفسجي اللون، لكن لم يكن هناك وقت للاستبدال.»

كذلك استعارت ميج كل الأغراض الجميلة التي تمتلكها شقيقاتها. مع ذلك شعرت بالإحباط لأن ملابسها كانت عتيقة الطراز، وتاقت ميج إلى الملابس الأنيقة التي تمتلكها الفتيات الثريات.

قالت ميج في أسف: «أتساءل هل سيأتي وقت أمتلك فيه شرائط أنيقة على ثيابي وأناشيط بقبعاتي جميعها.»

ذكَّرتها بيث بأنها كانت بالأمس في غاية السعادة لأن آني موفا وجهت إليها الدعوة إلى منزلها فحسب.

قالت: «أنت على حق يا بيث، لقد قلت ذلك بالفعل، وأنا فعلًا سعيدة.» نظرت ميج إلى حقيبتها الكبيرة، وهو ما بث إلى نفسها شعورًا بالبهجة. قالت: «كل شيء جاهز فيما عدا فستان الحفل، ستصلحه أمي.» ومع أن فستان الحفل الأبيض مر بالكثير من الإصلاحات، فإنها كانت تشعر بالسعادة.

في صباح اليوم التالي، ارتدت ميج أفضل ثيابها للسفر، ورحلت عن منزلها في إجازة تستمر أسبوعين. شعرت ميج بالغربة عندما وصلت إلى منزل موفا الفاخر الذي يمتاز ساكنوه بالرقي والأناقة. كانت عائلة موفا طيبة وخيِّرة بالرغم من نمط معيشتهم المترف. سرعان ما أدركت ميج أن عائلة موفا في غاية البساطة على الرغم من حياة الترف التي يحيونها، وشعرت بالطمأنينة هناك. وسرعان ما اعتادت على نمط رائع من تناول الطعام الشهي والركوب في عربة جميلة وارتداء أفضل ثيابها، ولم تكن تفعل شيئًا سوى الاستمتاع بوقتها. اتبعت ميج عادات الوسط الراقي كالفتيات الأخريات، فبدأت تتصرف بكبرياء، وتستخدم عبارات فرنسية في كلامها وتصفف شعرها مثلهن. وكلما رأت ميج أشياء آني موفا الجميلة، زاد حسدها لها.

لكن لم يكن لدى ميج متسع من الوقت تندب فيه حظها، إذ كانت شديدة الانشغال بقضاء وقت ممتع. تسوقت الفتاتان وتجولتا في المدينة سيرًا، وامتطتا الخيل، وزارتا الأصدقاء معًا. وفي المساء كانتا تذهبان إلى الأوبرا أو المسرح أو تمرحان بالمنزل.

كانت شقيقتا آني الكبريان مرحتين ومهذبتين. إحداهما تدعى بيل، وكانت مخطوبة، وهو ما رأته ميج أمرًا رومانسيًّا للغاية. أحب السيد موفا وزوجته ميج كثيرًا، مثل حب ابنتهما لها. ونادياها باسم «ديزي» وكثيرًا ما كانا يطريان عليها. سرعان ما اعتادت ميج على كل ذلك الاهتمام.

عندما أقيم أول حفل مسائي رسمي، ارتدت جميع الفتيات فساتين جديدة، أما ميج فكانت ترتدي فستان الحفلات الوحيد لديها، الذي بدا قديمًا ورثًّا مقارنة بفساتين الفتيات. لم يعلق أحد على ثياب ميج، لكن ميج شعرت بجرح في كبريائها وشعرت بخزي وخجل شديدين. صفَّفت سالي وآني وبيل شعر ميج وساعدنها في ارتداء وشاحها، حتى إنهن امتدحن ذراعها الأبيض الجميل. شعرت ميج بأنهن يشفقن عليها لفقرها الشديد.

شعرت بحزن عميق حتى دخلت الخادمة وهي تحمل صندوقًا به زهور جميلة. فتحت آني سريعًا غطاء الصندوق، وسرعان ما أبدت الفتيات إعجابهن بالزهور. قالت آني: «لا بد أنها من أجل بيل، أنا واثقة! دائمًا ما يرسل إليها خطيبها الزهور.»

قالت الخادمة: «الزهور مرسلة للآنسة ميج.» ثم أعطتها رسالة. تجمعت الفتيات حول ميج وطرحن عليها الأسئلة. قالت ميج وهي تضع الرسالة في جيبها: «الرسالة من أمي، أما الزهور فهي من لوري.» رفعت كلمات مارمي الحانية من روحها المعنوية، وشعرت بسعادة غامرة لأن لوري يتذكرها. وضعت بضع زهرات جانبًا لنفسها، ثم صنعت إكليلًا صغيرًا لصديقاتها. كانت سعيدة للغاية حتى إنها نسيت أمر فستانها الرديء.

في ذلك المساء، رقصت ميج كيفما شاءت، وأمضت وقتًا سعيدًا حتى سمعت حديثًا بمحض الصدفة جعلها تشعر بالغضب الشديد.

قال أحدهم: «كم عمره؟»

أجاب صوت آخر: «ستة عشر أو سبعة عشر على ما أظن.»

– «أعتقد أنه سيكون مناسبًا لإحدى الفتيات، أليس كذلك؟ أخبرتني سالي أنه على وفاق شديد معهن، والجدُّ العجوز يعشقهن.»

– «لقد أحكمت السيدة مارمي وضع خطتها، وتنفذها على نحو صحيح، مع أن الوقت مبكر قليلًا على زواج ميج.» على الرغم من أن الصوت كان خافتًا، أدركت ميج أنه كان صوت السيدة موفا.

– «لقد احمرت وجنتاها عندما جاءتها الورود، ثم تظاهرت بأنها لم تكن تتوقع الرسالة. يا للأسف! كان من الممكن أن تكون رائعة الجمال، إذا كانت أكثر أناقة. هل تعتقد أنه من الممكن أن نعيرها فستانًا لحفل يوم الخميس؟»

– «إنها أبِيَّة، لكن ليس لديها سوى ذلك الثوب القديم لترتديه.»

– «سأدعو الفتى لورانس للمجيء إلى هنا من أجل ميج.»

عندما عاد شريك ميج في الرقص ومعه شراب لها، كان وجهها أحمر اللون وتشعر بالتوتر. ساعدها كبرياؤها على إخفاء غضبها، وحاولت نسيان ما سمعته، لكنه ظل يتردد في أذنيها. أرادت بشدة أن تهرع إلى منزلها وتتحدث مع شقيقاتها وتطلب النصح من أمها. لكن لم يكن ذلك في الإمكان، لذا فعلت ما بوسعها كي تبدو سعيدة حتى انقضاء الأمسية. ونجحت في ذلك، فلم يشك أحد أنها تتظاهر بالسعادة.

عندما انتهى الحفل وأصبحت في غرفتها، بكت قليلًا، وظلت مستيقظة طويلًا تفكر جيدًا فيما حدث.

في صباح اليوم التالي، استيقظت ميج بقلب حزين وعينين متورمتين. فقد تعكر مزاجها تمامًا، أدركت أنه كان عليها أن تتحدث الليلة الماضية دون خوف وتصحح سوء الفهم. جلست الفتيات للخياطة تلك الظهيرة، عاملن ميج بكل احترام، فشعرت بالدهشة والرضا.

قالت بيل: «لقد وجهت دعوة لصديقك السيد لورانس لحضور حفل يوم الخميس، سيسرنا التعرف عليه أكثر، ودار بخلدنا أن ذلك الأمر سيسعدك.»

احمرت وجنتا ميج، وفكرت لحظة، ثم قالت: «كم أنت طيبة القلب، لكن من المحتمل ألا يستطيع المجيء.»

سألتها بيل: «لماذا؟»

أجابتها ميج: «لأنه طاعن في السن!»

– «كم عمره؟»

– «سبعون عامًا تقريبًا.» حاولت ميج ألا تضحك.

قهقهت بيل، وقالت: «أيتها الساذجة، نقصد الشاب.»

قالت ميج: «إنه ليس شابًّا، إن لوري صبي صغير.»

تبادلت الفتيات النظر في استغراب. قالت آني: «إنه من نفس سنك أليس كذلك؟»

أجابتها ميج: «كلا، فهو من عمر شقيقتي جو، سأبلغ السابعة عشرة في أغسطس/آب القادم.»

قالت آني: «لكنه أرسل إليك زهورًا؟»

أجابتها ميج: «إنه يفعل هذه الأشياء مع عائلتي طوال الوقت، فأمِّي وجدُّه صديقان قديمان، ونحن نلعب معًا.» تمنت جو أن تكون أوضحت الأمور بهذا الكلام.

همست آني لبيل: «إنها ساذجة للغاية، أليس كذلك؟»

دخلت السيدة موفا، وسألت هل تحتاج الفتيات إلى أي شيء. أخبرتها سالي أن ثيابها جاهزة لحفل الخميس. وقالت ميج الشيء نفسه على الرغم من أنها كانت بحاجة إلى الكثير من الأشياء الجديدة التي لا تملكها.

بعد أن خرجت السيدة موفا، سألتها سالي: «ماذا سترتدين؟»

قالت ميج: «فستاني الأبيض القديم إذا تمكنت من إصلاحه لحفل يوم الخميس، فقد تمزق بالأمس.»